

الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

هذا الكتاب كتاب [القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن] للعالم الفاضل والشيخ المحقق عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وهو رَحِمَهُ اللهُ له عناية دقيقة وعظيمة من وقت مبكر في حياته بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وكتب كتباً عديدة نافعة للغاية تتعلق بالقرآن الكريم، منها: تفسير كامل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ فسر فيه آيات القرآن بأسلوب واضح، وكلمات بيّنة، وعرض شيق، وتحقيق متين. مما جعل لكتابه مكانة كبيرة بين أهل العلم وطلابه.

وكتب خلاصة عظيمة لتفسير القرآن سمّاها [تيسير المنان في خلاصة تفسير القرآن]، وكتب هذا الكتاب المبارك [القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن]، وكتب أيضاً [فوائد عظيمة أفردتها مستنبطة من قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ]. وكتب أيضاً رسالة عظيمة سماها [المواهب الربّانية من الآيات القرآنية] كتبها في شهر رمضان المبارك وهو يتلو القرآن متدبراً لمعانيه ودلالاته؛ فكان يمر به حكّم عظيمة وفوائد جليّة؛ فيسطرّها ويجمعها إلى أن أخرجها في رسالة عظيمة سمّاها [المواهب الربّانية من الآيات القرآنية].

وهذا الكتاب المبارك [القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن] كتبه رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في شهر رمضان، ففي النسخة الخطيّة من كتاب [القواعد الحسان]، قال: الشروع فيه -في الصفحة التاسعة- في يوم الاثنين غرة رمضان سنة ألف وثلاثمائة وخمسي وستين، ولو طالعنا آخر الكتاب نجد أنه فرغ منه في السادس من شوال.. فبدأه في واحد رمضان وفرغ منه في السادس من شوال، ومعنى ذلك أنه كتبه في هذه المدة؛ وهي صيام شهر الصبر وصيام الستة التي تلي صيام شهر الصبر، وعدد القواعد التي جمعها في هذا الكتاب واحد أو اثنين وسبعين قاعدة، فيكون معدل كتابته لهذه القواعد: قاعدتين في كل يوم. واحد وسبعين قاعدة يكون معدل ذلك قاعدتين في كل يوم.

وهذا أيضًا يستفيد منه طالب العلم فائدة عظيمة: أن اشتغال طالب العلم بالقرآن في شهر رمضان ينبغي أن يكون مصاحبًا لتدبر كتاب الله **عَزَّجَلَّ**، وتَعَقُّل معانيه، وفهم دلالته؛ عملاً بقوله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾** [سورة النساء، من الآية: ٨٢]، وقوله: **﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾** [سورة المؤمنون، من الآية: ٦٨]، وقوله: **﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾** [سورة ص، من الآية: ٢٩]، ويُراجع طالب العلم في ذلك كلام أهل العلم وكتب التفسير.

وهذا الكتاب المبارك يفتح لك أبوابًا وأبوابًا عظيمة في علم التفسير، والشوق إلى مطالعة كتب التفسير، وأيضًا حُسْن الفهم لها عند قراءتها، إلى غير ذلك من الفوائد العظام، إضافةً إلى ما يكتسبه طالب العلم بقراءته لهذا الكتاب من فهمٍ لكلام الله **عَزَّجَلَّ**، وذوقٍ لمعانيه وطعمه وحلاوته، وفهمٍ لمقاصده وغاياته. ولهذا فإن الشيخ **رَحِمَهُ اللَّهُ** تعالى إضافةً إلى ما كتبه في هذا الكتاب من قواعد تتعلق بالتفسير؛ ضمَّنه فوائد عظيمة جدًا تتعلق ببيان طريقة فهم القرآن، وتدبر القرآن، وطريقة قراءة القرآن التي تُثمر في العبد علمًا وعملاً كما سيأتي ذلك فيما قرره في أول هذه الرسالة، وأيضًا فيما قرره **رَحِمَهُ اللَّهُ** تعالى في ثناياها ومضامينها. وهذه الرسالة أو هذا الكتاب ألفه الشيخ **رَحِمَهُ اللَّهُ** تعالى عام ألفٍ وثلاثمائة وخمسة وستين كما مر، وقد وُلِدَ **رَحِمَهُ اللَّهُ** في ألفٍ وثلاثمائة وسبعة، أي أن عمره **رَحِمَهُ اللَّهُ** تعالى وقت تأليفه لهذه الرسالة لم يصل إلى الستين، وإنما في السادسة والخمسين من عمره **رَحِمَهُ اللَّهُ** تعالى.

الشاهد: أن هذا الكتاب عظيمٌ جدًا في بابه، وحوى علمًا غزيرًا، وفوائد عظيمة تتعلق بالقرآن، وتتعلق أيضًا بتفسير القرآن الكريم، وطريقة الاستفادة من كتب التفسير.

وموضوع هذا الكتاب في القواعد -قواعد التفسير-، ومن المعلوم أن القواعد للعلوم كالقواعد للبيان والأصول للأشجار، القواعد للعلوم هي بمنزلة القواعد للبيان والأصول للأشجار، ومعنى ذلك: أن طالب العلم يحتاج حاجةً ماسّةً إلى معرفة القواعد في أي فنٍ يعتني بدراسته، ولهذا ترى قواعد في التفسير، قواعد في الفقه، قواعد في الأصول، قواعد في الحديث، قواعد في اللغة إلى غير ذلك، فما من علمٍ إلا وجمع فيه أهل العلم قواعد تضبط لطالب العلم دراسة هذا العلم.

ودراسة القواعد يترتب عليها فوائد كثيرة.. أهمها في تقديري أربعة فوائد:

الفائدة الأولى: تسهيل العلم وتيسير فهمه؛ لأن القاعدة بابٌ من أبواب التيسير، وإراحة طالب العلم من جهدٍ طويلٍ في البحث والتنقيب يُجمع له في قاعدةٍ تجمع له متفرقَ الأبواب، ومتنوعَ المسائل مما هو مندرجٌ تحت قاعدة واحدة، أو أصلٍ كليٍّ جامع.

الفائدة الثانية: جمع الأشباه والنظائر؛ وهذا من زينة العلم وجماله، ولا يستتمُّ لطالب العلم هذا الأمر إلا بالعناية بالقواعد والأصول الجامعة.

والأمر الثالث: زوال الاشتباه وأمن الخلط في المسائل.

ولهذا يقول شيخ الإسلام **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى**: لا بد أن يكون مع الانسان أصول كلية تُرد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت، ومعنى ذلك: أن طالب العلم إن لم يكن عنده كليات لم يأمن من الخلط في الجزئيات وفي الفروع.

الأمر الرابع: ثبات العلم وقوته ونماؤه؛ فإن من فائدة معرفة القواعد أنها تُثبت لطالب العلم العلم، وتمكن له في نفسه، وتُتميه بحيث يزداد العلم، ويزداد الفهم، وتزداد المعرفة بأبواب العلم وأنواع المسائل.

والشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى** عبد الرحمن بن السعدي له عناية كبيرة بالقواعد، وألّف فيها مؤلفات عديدة منها هذا الكتاب، ومنها كتاب له عظيمٌ للغاية سماه [طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول]. جمع فيه ما يزيد على الألف ما بين قاعدة وأصلٍ وضابط من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى**، وكتب تلميذه العلامة ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى**، ونظم منظومة في القواعد الفقهية، وكتب كتابًا في القواعد والفروق والتقسيم.

وله في هذا الباب مؤلفات نافعة، وهذا كله يزيد في اهتمامنا وعنايتنا بهذا الكتاب المبارك [القواعد الحسان] من إمام عالم له عناية فائقة بعلم القواعد، وله عناية فائقة بتفسير القرآن الكريم، وله أيضًا إمامة في الدين **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى** وغفر له.

ونبدأ بعون الله تبارك وتعالى في قراءة هذا الكتاب.

القارئ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فيقول الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى في كتابه [القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن]:

(مقدمة: الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا.

أما بعد:

فهذه أصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار، عظيمة النفع، تُعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله، والاهتداء به، ومخبرها أجل من وصفها؛ فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير، ومنهاج الفهم عن الله: ما يُعين على كثير من التفاسير الحالية في هذه البحوث النافعة.

أرجو الله وأسأله أن يتم ما قصدنا إirاده، ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سبباً للوصول إلى العلم النافع، والهدى الكامل.

واعلم أن علم التفسير أجل العلوم على الإطلاق، وأفضلها وأوجبها وأحبها إلى الله؛ لأن الله أمر بتدبر كتابه، والتفكير في معانيه، والاهتداء بآياته، وأثنى على القائمين بذلك، وجعلهم في أعلى المراتب، ووعدهم أسنى المواهب، فلو أنفق العبد جواهر عمره في هذا الفن، لم يكن ذلك كثيراً في جنب ما هو أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأصول كلها، وقاعدة أساسات الدين، وصالح أمور الدين والدنيا والآخرة، وكانت حياة العبد زاهرة بالهدى والخير والرحمة، وطيب الحياة، والباقيات الصالحات.

فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود؛ لأنه إذا انفتح للعبد الباب، وتمهّدت عنده القاعدة، وتدرّب منها بعدة أمثلة توضّحها، وتبين طريقها ومنهجها، لم يحتاج إلى زيادة البسط وكثرة التفاصيل، ونسأله تعالى أن يمدّنا بعونه ولطفه وتوفيقه، وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنّه وكرمه).

أولاً يحسن أن نضيف في أعلى الصفحة فوق المقدمة: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأنها ثابتة في النسخة الخطية بخط المؤلف كما في الصفحة العاشرة، فهو **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى بدأ كتابه هذا بالبسملة تأسيساً بكتاب الله **جَلَّ وَعَلَا**، وبرسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في كتاباته ومراسلاته -صلوات الله وسلامه عليه-.

بدأ بالبسملة، وحمد الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، ثم شرع في ذكر مقدمة هذا الكتاب، وهي تتلخص في بيان أمور ثلاثة:

الأمر الأول: **بَيْنَ رَحْمَةِ اللَّهِ** تعالى فوائد قواعد التفسير، وعِظَم شأنها، وحاجة طالب العلم إليها، وذكر أنها (جليلةُ المقدارِ، عظيمةُ النفعِ، تُعينُ قارئها ومتأملها على فهمِ كلامِ الله، والاهتداء به)؛ فهذا الجانب الأول مما بينه **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى ألا وهو مكانة قواعد التفسير، وعِظَم شأنها، وحاجة طالب العلم الماسة إليها.

الأمر الثاني مما بينه في هذه المقدمة: أهمية علم التفسير؛ لأن هذه القواعد قواعد تختص بعلم التفسير خاصةً، وعرفنا أنه ما من علمٍ إلا وكتب فيه أهل العلم قواعد مختصةً به، لكن القواعد التي تختص بعلم التفسير أعظم شأنًا وأرفع مكانةً؛ لأن شرف العلم من شرف معلومه، وليس هناك أعظم ولا أجل من كتاب الله **عَزَّجَلَّ**، ولهذا كانت القواعد المختصة بالتفسير أعظم ما يكون في هذا الباب -أعني باب قواعد-؛ لأن التفسير متعلق بكلام الله **عَزَّجَلَّ** الذي هو كتاب الهداية والفلاح والسعادة للناس في الدنيا والآخرة، كما وضع الشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى ذلك.

وأيضًا بين أهمية تدبر القرآن، وأن الله **عَزَّجَلَّ** أمر بتدبر كتابه كما في قوله: **﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾** [سورة ص، من الآية: ٢٩] وقال: **﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾** [سورة المؤمنون، من الآية: ٦٨] **﴿أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾** [سورة النساء، من

الآية: ٨٢]، فأمر بتدبر القرآن، وقواعد تفسير القرآن تُعين المسلم وطالب العلم على حُسن التدبر والفهم لكلام الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وأيضًا تعينه إعانة عظيمة على قراءة كتب التفسير وحُسن فهمها وضبطها.

الأمر الثالث مما بينه **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى في هذه المقدمة: بيان منهجه في هذا الكتاب، وأنه راعى فيه الإيجاز، والاختصار الذي يحصل فيه المقصود؛ فهو كتابٌ ليس بالطويل الممل، ولا بالمختصر المخل، بل هو كتاب متوسط في بابه أتي على مهمات القواعد، ونفيس المسائل المتعلقة بهذا الباب العظيم.

ثم قال: لماذا راعى الإيجاز والاختصار؟ قال: (لأنه إذا انفتح للعبد الباب، وتمهّدت عنده القاعدة، وتدرّب منها بعدة أمثلة توضّحها، وتبين طريقها ومنهجها، لم يحتاج إلى مزيد بسط)؛ ولهذا يعتني طالب العلم بالقواعد التي يذكرها الشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ** يعتني بفهمها، وفهم بعض الأمثلة عليها، ثم يجد نفسه بإذن الله وعونه وتوفيقه؛ لأنه إذا قرأ في كتاب الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، ومر عليه فروع هذه القاعدة وجزئياتها فهمه، واجتمعت له تلك الفروع في قاعدة كليةٍ يستظهرها تجمع له تلك الفروع والجزئيات.

القارئ:

القاعدة الأولى:

في كيفية تلقي التفسير:

كُلِّ مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا وَعَمِلَ عَمَلًا، وَأَتَاهُ مِنْ أَبْوَابِهِ وَطَرَقَهُ الْمَوْصِلَةَ إِلَيْهِ، فَلَا بَدَّ أَنْ يُفْلَحَ وَيَنْجَحَ، كما قال تعالى:

﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [سورة البقرة، من الآية: ١٨٩].

وكلما عَظُمَ المطلوب تأكَّدَ هذا الأمر، وتعيَّنَ البحث التام عن أمثلٍ وأحسنِ الطرق الموصلة إليه، ولا ريب أنَّ ما نحنُ فيه هو أهمُّ الأمور وأجلُّها، وأصلها.

فاعلم أنَّ هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق وإرشادهم، وأنَّه في كلِّ وقتٍ وزمان يُرشد إلى أهدي الأمور وأقومها. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء، من الآية: ٩].

فعلى الناس أن يتلقوا معنى كلام الله كما تلقاه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ فإنَّهم إذا قرأوا عشرَ آياتٍ، أو أقلَّ أو أكثر، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ما دلَّت عليه من الإيمان والعلم والعمل، فينزّلونها على الأحوال الواقعة، ويعتقدون بما احتوت عليه من العقائد والأخبار، وينقادون لأوامرها ونواهيها، ويدخلون فيها جميع ما يشهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم، ويحاسبون أنفسهم: هل هم قائلون بها أو مُخلّون؟ وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة، وإيجاد ما نقص منها؟ وكيف التخلص من الأمور الضارة؟ فيهتدون بعلومه، ويتخلّقون بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنَّه خطابٌ من عالم الغيب والشهادة موجّهٌ إليهم، ومطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه.

فمن سَلَكَ هذا الطريق الذي سلّكه، وجَدَّ واجتهدَ في تدبُّر كلام الله، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته وازدادت بصيرته، واستغنى بهذه الطريقة عن كثرة التكلُّفات، وعن البحوث الخارجية، وخصوصًا إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانبًا قويًا، وكان له إلمامٌ واهتمامٌ بسيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأحواله مع أوليائه وأعدائه، فإنَّ ذلك أكبرُ عونٍ على هذا المطلب.

ومتى علم العبد أنَّ القرآن فيه تبيانٌ كلِّ شيءٍ، وأنَّه كُفيلٌ بجميع المصالح مُبينٌ لها، حاثٌّ عليها، زاجرٌ عن المضار كُلِّها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونزلها على كلِّ واقعٍ وحادثٍ سابقٍ أو لاحقٍ، ظهر له عَظَمُ مواقعها وكثرة فوائدها وثمراتها.

ثم شرع **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى بذكر القواعد، وبدأها بالقاعدة الأولى في كيفية تلقي التفسير.

وأشار **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى إلى أن الناس في كل مطلبٍ يقصدونه، وأمرٌ يحتاجونه يتنوعون في طريقة طلبه؛ فمنهم من يطلبه من خلال طريقٍ واضحة، وبابٍ بينٍ ومسلكٍ واضح، ومنهم من يتخبط، وربما اتجه إلى مقصدٍ من طريقٍ يبعده عنه، ربما اتجه إلى مقصدٍ من طريقٍ يبعده عن ذلك المقصد وعن نيته، ولهذا لا أنفع للعبد في أي مقصدٍ يطلبه من أن يأتيه من بابه، كما قال الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [سورة البقرة، من الآية: ١٨٩]، وهذه الآية بمثابة القاعدة العظيمة الجامعة التي تُريح العبد من كثيرٍ من التخبطات، والسير في الأمور على غير نهجٍ وعلى غير طريقٍ.

ولهذا نبه **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى أن النافع للعبد في هذا الباب أن يأتيه من بابه، وبابه الذي لا أنجع منه ولا أنفع هو ذلك المسلك الذي سلكه الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**، والنهج المبارك الذي كانوا عليه، ولهذا **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى بدأ هذا الكتاب بربط الناس بطريقة الصحابة، ومنهاجهم في فهم القرآن، والعناية بالقرآن الكريم، وأيضًا طريقتهم في تفسير القرآن الكريم والعمل به، وهذا هو الباب المبارك الذي ينبغي أن يكون عليه كل مسلم، ولهذا قال الإمام مالك **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى: (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها).

وقيل أيضًا: (من كان على الأثر فهو على الطريق)؛ أي من كان على أثر الصحابة ومن اتبعهم بإحسان فهو على الطريق السوية، والجادة المستقيمة التي ينال بها رضا الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

ثم نبّه **رَحْمَةُ اللَّهِ** أن هذه القاعدة -وهي إتيان الأمور من أبوابها- تتأكد في المطالب العظام، ولا أعظم من كلام الله **عَزَّ وَجَلَّ** وفهمه فهمًا صحيحًا.

ثم شرع في بيان الطريقة في فهم القرآن، وهي طريقة الصحابة -**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** وأرضاهم-، فقال **رَحْمَةُ اللَّهِ**: (على الناس أن يتلقوا معنى كلام الله كما تلقاه الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**)؛ ما هي طريقتهم؟ قال: (فإنهم إذا قرأوا عشر آيات أو أقل أو أكثر، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ما دلّت عليه من الإيمان والعلم والعمل)؛ هذه طريقة الصحابة، ولهذا روى الحاكم والإمام أحمد وغيرهما عن أبي عبد الرحمن السلمي، قال: (حدثنا من كان يُقرئنا من أصحاب النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** -يعني ابن مسعود وغيره من الصحابة- أنهم كانوا يقرءون عن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يتعلموا ما في هذه من العلم والعمل). قال: (فعلّمنا العلم والعمل)؛ أي جمعوا بين العلم بمعاني القرآن، والعمل بالقرآن الكريم، فلم يكن حظهم من القرآن مجرد التلاوة، وإقامة الحروف، بل إنهم جمعوا بين إقامة الحروف والحدود، جمعوا بين فهم المعاني والعمل بكتاب الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**.

بخلاف من جاء بعدهم واتجهت همته إلى إقامة الحروف دون فهم المعاني ودون العمل بالقرآن الكريم، حتى إن بعض الناس يُقيم حروف القرآن إقامةً متقنة لكنه يخالف القرآن في عمله وسلوكه، وقد أدرك بعض السلف **رَحِمَهُمُ اللَّهُ** أناس من هذا القبيل، وذمّوهم أشدّ الذم، كما جاء عن الحسن البصري **رَحِمَهُ اللَّهُ** تعالى أنه قال متحدثاً عن بعض قراء زمانه، وهو من علماء التابعين، قال متحدثاً عن بعض قراء زمانه، قال: يقول أحدهم -يعني أحد هؤلاء القراء-: قرأت القرآن كله فلم أسقط منه حرفاً، وقد أسقطه والله كله، لا يرى عليه القرآن لا في خلق ولا عمل، يحفظ حروف القرآن حفظاً متقناً؛ لكن الأخلاق التي جاءت في القرآن، والعبادات التي أمر بها الناس بها في القرآن لا ترى عليه، فيقول الحسن **رَحِمَهُ اللَّهُ**: إذا كانت القراء مثل هذا لا كثر الله في الناس أمثال هؤلاء.

يقول: ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الورعة، فقديمًا أهل العلم من أئمة السلف ذمّوا من كان من القراء على هذه الطريقة معتنيًا بحروف القرآن لا يُسقط منها حرفاً، لكنه لا يقيم حدود القرآن، ولا يعمل بالقرآن، ربما يكون على عقيدة مخالفة للعقيدة التي في القرآن، وربما يكون على سلوكٍ مخالفٍ للسلوك الذي دعا إليه القرآن، وربما كان مضيعًا للعبادات التي أمر بها في كتاب الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

ولهذا لا يُستغرب أن يكون حافظاً للقرآن وينام عن صلاة الفجر بانتظام، أين هذا من الآيات الكثيرة في كتاب الله **عَزَّجَلَّ** الآمرة بإقام الصلاة؟ والآمرة بالمحافظة على الصلاة؟ والآمرة بأداء الصلاة في وقتها؟ **﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾** [سورة النساء، من الآية: ١٠٣]، هذا الذي يحفظ آيات كثيرة في القرآن: **﴿اقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾** [سورة الأنعام، من الآية: ٧٢]، هل هو من أهل هذه الآيات إذا كان ليس من أهل إقامة الصلاة؟ بمجرد حفظه لها وإتقانه لحروفها ومخارجها ومدودها.. إلى غير ذلك؟! لا والله، لا يكون الإنسان من أهل الآية من كتاب الله **عَزَّجَلَّ** إلا إذا جمع بين التلاوة التي هي القراءة، والتلاوة التي هي الفهم، والتلاوة التي هي العمل، وكل ذلكم يُعد تلاوةً، قال الله **عَزَّجَلَّ**: **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾** [سورة البقرة، من الآية: ١٢١]، قال

أهل العلم: تلاوة القرآن بالقراءة والفهم والعمل؛ حتى العمل يُعد تلاوةً.

وشاهد ذلك: قول الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: **﴿وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّهَا﴾** [سورة الشمس، من الآية: ٢]؛ أي تبعها؛ فمتبع القرآن تالٍ للقرآن، ومن لا يكون متبعًا للقرآن لا يُعد تاليًا للقرآن وإن ضبط حروف القرآن وألفاظه.

ولهذا الطريقة الصحيحة والنهج القويم مع كتاب الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** هو نهج الصحابة، والمسلك الذي سلكه الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**، كما أوضح ذلك ابن مسعود وغيره، كانوا لا يتجاوزون العشر آيات حتى يفهموا المعاني،

وحتى أيضًا يطبقوا ما فهموه من المعاني، فجمعوا بين العلم والعمل، ولهذا كان بعضهم يمضي في سورة واحدة، بحفظ سورة واحدة السنوات، ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مكث في حفظ سورة البقرة سبع سنوات، ومن الناس من يحفظ الآن القرآن في أربعة شهور في برامج مكثفة للحفظ، لكن هل هذا الحفظ يُثمر الثمرة التي يُثمرها الطريقة التي كان عليها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم؟!

والقرآن أنزل ليُعمل به، يقول الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (أُنزل القرآن ليُعمل به؛ فاتخذ الناس قراءته عملاً)، أصبح العمل مجرد القراءة، لكن إقامة الحدود والأوامر واجتناب النواهي في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كثير من هؤلاء لا يقيم لها وزناً.

تراه مثلاً يقرأ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية: ٢٣]، ٦، ويقوم على إثر قراءته لهذه الآية عاقاً لوالديه، هل هو من أهل هذه الآية؟ يقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَابِ﴾ [سورة الحجرات، من الآية: ١١]، ٦، ويقوم على إثر قراءته لهذه الآية ويسخر ويهمز ويلمز، فهل هو من أهلها؟ لا. لا يكون الإنسان من أهل كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلا بأن يجمع مع تلاوة القرآن فهمه والعمل به كما كانت على ذلك طريقة الصحابة.

ونبه الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى هنا إلى أمرٍ يُعنيك على تحقيق هذا المقصد، ويُساعدك على تطبيق هذا المرام؛ ألا وهو أن تستشعر أن هذا القرآن كتابٌ منزلٌ من رب العالمين، كتابٌ من خالقك وسيدك ومولاك، وهو كتابٌ فيه هدايتك وفلاحك وسعادتك في الدنيا والآخرة. ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [سورة الإسراء، من الآية: ٩]. وليتضح لك الأمر.. أضرب مثلاً: لو أنه قُدِّر أن يوماً من الأيام جاءك خطاب من زعيمٍ من الزعماء، أو رئيسٍ من الرؤساء، أو عظيمٍ من العظماء في نفوس الناس، أرسل لك خطاباً بلغة لا تفهمها، وقيل: خذ هذا خطابٌ وصلك من فلان العظيم، أو الرئيس فلان، أو غير ذلك -خطابٌ لك-، وأنت لا تفهم لغته، ماذا ستصنع؟ ماذا تصنع؟ هل ستلقي هذا الخطاب؟! هل ستهمل هذا الخطاب؟! بل ستجد نفسك مضطراً للتنقل من شخص إلى آخر، من يعرف هذه اللغة؟ من يفهم هذا الخطاب؟ من يساعدي على كذا؟ حتى تعرف ماذا يُريد.

فما بالناس أيدينا خطابٌ من رب العالمين فيه الهداية، وفيه الفلاح، وفيه السعادة في الدنيا والآخرة، ولا تكون لنا همة في فهمه، ولا أيضًا تكون لنا همة في العمل به.

ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (ويعلمون أنه خطابٌ من عالم الغيب والشهادة موجّهٌ إليهم، ومطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه)؛ فإذا سلك المسلم هذا المسلك، ثم بدأ يُسائل نفسه ويحاسبها، كيف أنا مع أوامر

القرآن؟ كيف أنا مع نواهي القرآن؟ كيف أنا مع إقامة حدود القرآن؟ كيف أنا مع مواظب القرآن؟ يُحاسب نفسه هذه المحاسبة تُثمر فيه بإذن الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** جدًّا واجتهادًا في العناية بكتاب الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** كما كان عليه الصحابة الأخيار ومن اتبعهم من السلف الأبرار.

قال: (فمن سَلَكَ هذا الطريق الذي سلكوه، وَجَدَ واجتهدَ في تدبُّرِ كلام الله، انفتحَ لَهُ البابُ الأعظم في علم التفسير، وَقَوِيَتْ معرفتهُ وازدادت بصيرتهُ، واستغنى بهذه الطريقة عَنْ كثير من التكلُّفات)؛ وبعض كتب التفسير لا تخلو من تكلفاتٍ لا حاجة إليها، وتطويلاتٍ لا حاجة إليها؛ فيستغني عن ذلك كله ويكون حسن الفهم لكلام الله، حسن التأثير بمواظب القرآن وزواجر القرآن، أيضًا مقيمًا لحدود كلام الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**.

وبهذه المناسبة أذكر قصة قديمة لما فيها من فائدة: وهي مفيدة جدًّا للشباب ونافعة، أذكر قبل سنوات كنت أُدرِّس في المرحلة المتوسطة، فأتاني طالبٌ نبيه يحفظ كتاب الله **عَزَّ وَجَلَّ**، وكان في المرحلة الثانية المتوسطة، فجاءني ومعه أوراق كثيرة مدبسة تزيد على المائتين ورقة، مكتوب عليها [الأوامر والنواهي في القرآن]، جمع فلان -كاتب اسمه-، [الأوامر والنواهي في القرآن الكريم]، فمد لي الكتاب -هذه الأوراق المجموعة- وقال: أود أن تقرأ لي هذه الأوراق. فقلت له: ما أَفْضَلُ لك أن تبدأ من هذا الوقت بالتأليف؛ التأليف تبدأ به في مرحلة فيما بعد، عندما تتمكن من علوم وتطلع.. إلخ، أما الآن ما أنصحك بـ... قال: أنا لا أؤلف، أنا -هكذا يقول لي وهو في المرحلة الثانية المتوسطة- أنا أكرمني الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بحفظ القرآن، وأنا وأنا أقرأ القرآن أجد في القرآن أوامر الله يأمرني بها، شاب في الثانية متوسط، يقول: أجد في القرآن أوامر يأمرني الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بها، ونواهي ينهاني **جَلَّ وَعَلَا** عنها، فعزمت على نفسي أنني كل أمر أجد في القرآن أكتبه في هذه الورقة، ثم أجمع بعض الآيات التي فيها هذا الأمر، ثم أنقل من تفسير ابن السعدي وتفسير ابن كثير ما يُعينني على فهم هذا الأمر، حتى أجمع له أوراق كثيرة فيها أوامر القرآن ونواهي القرآن، وأجتمع له معها كلام هذين المفسرين عبد الرحمن بن السعدي والحافظ ابن كثير.

قصد بذلك أن يفهم هذه الأوامر وهذه النواهي حتى يكون عاملاً بما أمره الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** به، ومنتهياً عما نهاه الله **جَلَّ وَعَلَا** عنه.

فمثل هذه المسالك والطرائق التي يجتهد العبد فيها بتدبر القرآن، وفهم كلام الله مستعينًا بكتب التفسير الواضحة البينة، السليمة أيضًا من التكلُّفات، أو أيضًا المخالفات، ومما يُنصح به كل مبتدئ كتاب [تيسير

الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان] الذي هو تفسير القرآن الكريم للشيخ عبد الرحمن بن السعدي رَحِمَهُ اللهُ تعالى.

فيقول: من سلك هذا المسلك، وأعتنى هذه العناية، وكان عنده حظٌّ من اللغة ونصيبٌ منها، وأيضًا عنده حظٌّ واهتمامٌ بسيرة النبي ﷺ وهذا ملحظ جميل، وتنبه عظيم، أن يكون عنده عناية بسيرة النبي ﷺ؛ لأن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لما سُئِلَتْ عن خلق الرسول ﷺ قالت: "كان خلقه القرآن"؛ ومعنى ذلك أنه لا يمر بك خلقٌ في القرآن الكريم إلا وقد طبَّقه النبي ﷺ على أكمل حالٍ وأرفع درجة.

القارئ:

قال رَحِمَهُ اللهُ تعالى: ويلتحق بهذه القاعدة

القاعدة الثانية:

العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب:

وهذه قاعدة نافعة جدًا، بمراعاتها يحصل للعبد خيرٌ كثير وعلمٌ غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علمٌ كثير، ويقعُ الغلطُ والارتباك.

وهذا الأصلُ اتفقَ عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم، فمتى راعيت القاعدة السابقة، وعرفت أن ما قاله المفسرون من أسباب النزول؛ إنما هي أمثلةٌ توضِّحُ الألفاظ، ليست الألفاظ مقصورةً عليها. فقولهم: نزلت في كذا وفي كذا، معناه: أن هذا مما يدخل فيها، ومن جملة ما يُرادُ بها، فإنه كما تقدم إنما أنزل القرآن لهداية أول الأمة وآخرها.

والله تعالى قد أمرنا بالتفكير والتدبر لكتابه، فإذا تدبرنا الألفاظ العامة، وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة؛ فلا شيءٍ نخرجُ بعض هذه المعاني، مع إدخالنا ما هو مثلها ونظيرها؟

ولهذا قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك؛ فإنه إما خيرٌ تؤمرُ به، وإما شرٌّ تُنهى عنه». فمتى مرَّ بك خبرٌ عن الله، وعمَّا يستحقُّه من الكمال، وما ينتزَّه عنه من النقص، فأنبت جميع ذلك المعنى الكامل الذي أثبتته لنفسه، ونزَّهه عن كلِّ ما نزَّه نفسه عنه.

وكذلك إذا أخبر عن رسوله، وكتبه، واليوم الآخر، وعن جميع الأمور السابقة واللاحقة، جزمْتَ جزمًا لا شكَّ فيه أنه حقٌّ على حقيقته، بل هو أعلى أنواع الحقِّ والصدق ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [سورة النساء، من الآية: ١٢٢].

وإذا أمر بشيءٍ نظرت إلى معناه، وما يدخل فيه وما لا يدخل، وأنَّ ذلك موجَّهٌ إلى جميع الأمة، وكذلك في النهي؛ ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله أصل الخير والفلاح، والجهل بذلك أصل الشر والجفاء.

فمراعاة هذه القاعدة أكبر عونٍ على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، والقرآن قد جمع أجل المعاني وأنفعها وأصدقها بأوضح الألفاظ وأحسنها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْتُكَ بِالْحَقِّ وَالْحَسَنِ تَقْسِيرًا﴾ [سورة الفرقان، من الآية: ٣٣].

ثم ذكر **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى هذه القاعدة: (العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب)؛ كثيرٌ من الآيات في القرآن الكريم لها أسبابٌ خاصّةٌ نزلت بمناسبةها، ولهذا إذا قرأت في كتب التفسير، أو أيضًا قرأت على وجه الخصوص فيما أفرد به بعض أهل العلم في أسباب النزول، وهناك مصنفاتٌ خاصة في أسباب النزول -نزل الآيات- تجد أن آيات كثيرة في القرآن الكريم لسببها نزول؛ قصة حصلت نزلت بسببها الآية، فمثلاً الآيات التي تتعلق بالظهار لنزولها سبب، الآيات التي تتعلق باللعان لنزولها سبب، الآيات التي تتعلق ببراءة أم المؤمنين عائشة وما ترتب على ذلك من حكم وأحكام لنزولها سبب؛ فتجد آيات كثيرة جدًا في القرآن الكريم لنزولها أسباب، وأحيانًا يتعدد السبب يكون لنزول الآية سبب واحد أو سببين، وهذا يُعرف بمطالعة كتب التفسير، وأيضًا مطالعة الكتب المفردة في هذا الباب -باب أسباب النزول-.

والقاعدة هنا: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب: ومعنى ذلك أن لا يُقصر حكم الآية على السبب الذي نزلت فيه الآية، بل كل ما كان نظيره ومثيلاً له يأخذ حكم الآية؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذه قاعدة عظيمة تشهد لها سنة النبي الكريم **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** في أحاديث عديدة؛ منها ما رواه الترمذي **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى وغيره في قصة أبي اليسر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** لما حصل منه مرة أن قَبِلَ امرأةً، وجاء نادماً وتائباً إلى الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يذكر له أمره، فمر أولاً بأبي بكر وذكر له حاله، فقال: أستر على نفسك وتب إلى الله، ولم يقنع بذلك، فمر بعمر فقال: أستر على نفسك وتب إلى الله، فجاء إلى النبي **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**، وذكر منه ما حصل، فسكت النبي **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** ولم يُجبه بشيء، ثم خاف أبا اليسر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** على نفسه خوفاً عظيماً حتى قال: قلت في نفسي: إني من أهل النار، ومضى فنزل على النبي **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** قول الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي

النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿سورة هود، من الآية: ١١٤﴾، فقال: ادعو لي أبا اليسر؛ فدعوه، فتلا عليه **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** هذه الآية، فقال أبا اليسر، أو قال أحد الصحابة: يا رسول الله! أهني له خاصة؟! لأنه هو السبب الآن -سبب النزول-، قال: يا رسول الله! أهني له خاصة؟! قال: «لا، بل للناس عامة»، فإذا العبرة بماذا؟ بعموم اللفظ، قول الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾**؛ هل هذا خاصٌّ بأبي اليسر؟! أم هو عام لكل مسلم؟!

ولهذا نستفيد من عموم هذه الآية: الجِدُّ والاجتهاد في فعل الطاعات، والمحافظة على العبادات، ولا سيما الصلاة، والاجتهاد في هذا ورعايته والعناية به، حتى لو قُدِّرَ أن الإنسان فرطت نفسه يوماً بمعصية أو بذنب تكون هذه الحسنات ماحية له بإذن الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، ولهذا الحسنات ماحية، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾؛ وفي الحديث قال **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**: «اتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»؛ فإذا هذا شاهدٌ من السُّنَّةِ واضح على أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

أيضاً شاهدٌ آخر من السُّنَّةِ على ذلك وهو ما رواه مسلم في "صحيحه" عن عبد الله بن معقل قال: حدثني كعب بن عجرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أنه خرج مع رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** محرماً فقمّل رأسه ولحيته -يعني امتلأ رأس شعره قمّل ولحيته امتلأت قملاً وأخذ يؤذيه-، ولهذا جاء في بعض الأحاديث أو الروايات الأخرى للحديث قال له **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ**: «أَيُؤْذِيكَ هَوَامُ رَأْسِكَ؟!»؛ لأن القمل آذاه، ومن المعلوم أن المُحْرَمَ لا يحلق رأسه حتى يأتي وقت ذلك إما في العمرة بعد الطواف والسعي، أو في الحج بعد رمي الجمار، أو في يوم النحر، فالشاهد أن كعب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** تأذّى من القمل، فقال له النبي، أرسل النبي **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** ودعا بالحلاق، دعا **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** بالحلاق هو بنفسه طلب -صلوات الله وسلامه عليه- الحلاق، وهذا أيضاً من رأفته ورحمته -صلوات الله وسلامه عليه-، ثم قال له -يعني بعد أن حلق رأسه- قال: «هل عندك نسك؟»؛ يعني هل عندك شاة تذبحها؟ قال: ما أقدر عليه، يعني ما أقدر على النسك، فأمره أن يصوم ثلاثة أيام، أو يُطْعِمَ سِتَّةَ مَسَاكِينَ لكل مسكينين صاع؛ فأنزل الله **عَزَّ وَجَلَّ** فيه خاصّة: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [سورة البقرة، من

الآية: ١٩٦]، ثم كانت للمسلمين عامّة، إذا هذه الآية وهي قوله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾**؛ هذه في كعب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** خاصّة، وفيمن كان أمره نظير أمر كعب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، فمن أُصِيبَ بشعر رأسه وأضطر إلى حلقه لا بأس أن يحلقه وهو محرم على أن يفدي فدية الأذى، وهو مخير بين

ثلاث: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾؛ أي ثلاثة أيام كما جاء السُّنَّةُ مفسرة لذلك، ﴿أَوْصَدَقَةٌ﴾؛ وهي إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة، وهو مخير بين هذه الأمور الثلاثة: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْصَدَقَةٌ أَوْنُسُكٌ﴾؛ مخيرٌ بين هذه الأمور الثلاثة.

إذاً هذه نزلت في كعب خاصّة، وقصته كانت سبب نزولها، لكنها للناس عامة، ولهذا قعد أهل العلم هذه القاعدة العظيمة ألا وهي: [العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب].

يأتي هنا سؤال ألا وهو: إذا كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ ما فائدة معرفة سبب النزول؟ يقول الشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى** (عرفت أنّ ما قاله المفسرون من أسباب النزول؛ إنّما هي أمثلةٌ توضّحُ الألفاظ)؛ فتكون أسباب النزول عوناً لك على فهم الآية، لا أن تكون أسباب النزول أمراً يُقصر عليه حكم الآية. ولهذا قال: (إنّما هي أمثلةٌ توضّحُ الألفاظ، ليست الألفاظ مقصورةً عليها)؛ وإذا قُصرت الألفاظ -ألفاظ الآيات على أسباب النزول- عطلت كثير من أحكام القرآن الكريم.

ومن أعجب ما يقع من بعض الناس وأخطره في هذا الباب أن بعض من بلاهم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بالاستغاثات الشركية، والعبادات الباطلة، وسؤال غير الله، ودعاء غير الله، والذبح لغير الله؛ بعض هؤلاء الذين بلوا بهذه الأمور إذا تليت عليهم الآيات التي فيها النهي عن الشرك، والتحذير منه، وبيان سوء عاقبته، قالوا: هذه نزلت في كفار قريش خاصّة، فكيف تُتلى في حقنا ممن يسأل غير الله، أو يستغيث بغير الله؟! والله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يقول: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [سورة القمر، من الآية: ٤٣]، الذي يفعل عمل هؤلاء تنطبق عليه الآيات شاء أم أبى، الذي يعمل هؤلاء يذبح لغير الله، يستغيث بغير الله، يطلب المدد والعون من غير الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** تنطبق عليه؛ لأن العبرة بعموم الألفاظ.

لما يقول الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [سورة الإسراء، من الآية: ٥٦]، ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [سورة سبأ، من الآية: ٢٢]، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [سورة فاطر، من الآية: ١٣]؛ أهي خاصّة في كفار قريش؟ أو أن كل من يدعو غير الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** في أي زمانٍ ومكان تُتلى هذه الآية في حقه ليزجر عن الشرك، ويُنهى عن الضلال والباطل؟!!

ولهذا أقول: لو عُطِّلت هذه القاعدة: [العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب]؛ لُعُطِّلت كثيرٌ من أحكام القرآن الكريم، ولهذا نبه الشيخ **رَحْمَةُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى** على أهميته هذه القاعدة، وعظيم مكائدها، وأن مراعاتها أكبر عونٍ للعبد على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

القارئ:

قال **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى**: يوضح ذلك ويبينه وينهج طريقه القاعدة الثالثة:

القاعدة الثالثة:

الألف واللام الداخلة على الأوصاف:

وأسماء الأجناس تُفيدُ الاستغراق بحسب ما دخلت عليه، وقد نصَّ على ذلك أهل الأصول وأهل العربية، واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان. فمثلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب، من الآية: ٣٥].

أدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق، إلى آخرها، وأن بكمال هذه الأوصاف يكمل لصاحبها ما رُتِّبَ عليها من المغفرة والأجر العظيم، وبِنَقْصَانِهَا يَنْقُصُ، وَبِعَدَمِهَا يُفْقَدُ. وهكذا كل وصفٍ رُتِّبَ عليه خيرٌ وأجرٌ وثواب، وكذلك ما يقابل ذلك كل وصفٍ نهى الله عنه، ورُتِّبَ عليه وعلى الْمُتَصِفِ بِهِ عقوبةٌ، وشرٌّ، ونقصٌ، يكونُ له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور، وكذلك مثلُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [سورة المعارج، من الآية: ١٩-٢١]، عامٌ بجنس الإنسان؛ فكلُّ إنسانٍ هذا وصفه إلا من استثنى الله بقوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [سورة المعارج، من الآية: ٢٢]، إلى آخرها، كما أن قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [سورة العصر، من الآية: ١-٢]، أي كل إنسانٍ متصف بالخسار، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ [سورة العصر، من الآية: ٣]، وأمثال ذلك كثير.

ثم قال **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى**: (القاعدة الثالثة: الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تُفيدُ الاستغراق بحسب ما دخلت عليه)؛ الألف واللام (ال) للتعريف، عندما تدخل على الأوصاف؛ الأوصاف مثل: المسلمين، المؤمنين، المحسنين، المتقين، المتصدقين، القانتين، الخاشعين، هذه كلها أسماء أوصاف، وعندما تدخل أيضًا على أسماء الأجناس مثل: الإنسان، والطير، الجن، الملائكة؛ هذه أسماء أجناس؛ فإذا

دخلت (ال) التعريف على أسماء الأوصاف أو دخلت على أسماء الأجناس أفادت العموم، ثم يُنبه أن إفادتها العموم تكون بحسب الأمر الذي دخلت عليه.

ومثل على ذلك **رَحِمَهُ اللَّهُ** تعالى ببعض الأمثلة؛ ففيما يتعلق بدخول (ال) التعريف على الأوصاف مثل بقوله تعالى: **﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمُ وَالْحَفِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾**، أسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلنا وإياكم منهم.

هذه الآية الكريمة جمعت هذه الأوصاف العظيمة، وكل وصفٍ أُدخل عليه (ال) التعريف، **﴿الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ﴾**، ثم رُتّب على ذلك في تمام الآية ثوابٌ وأجرٌ ألا وهو قوله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾**، فما هو حظ الناس من هذا الأجر؟ ألا وهو قوله: **﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾**، هل المسلمون متساوون في المغفرة والأجر؟ هل المؤمنون متساوون في المغفرة والأجر؟ هل القانتون متساوون في المغفرة والأجر؟ هل الصائمون متفاوتون في المغفرة والأجر؟ هذا سؤال، جوابه يُفهم في ضوء هذه القاعدة، ألا وهي أن (ال) تُفيد الاستغراق؛ فعندما تقرأ: **﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾**، (ال) تُفيد الاستغراق؛ أي تستغرق جميع المعاني التي تحتلها لفظة المسلم، أو كلمة مسلم، و(ال) في قوله: **﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾**؛ أيضًا تستغرق جميع المعاني التي تحتلها هذه الكلمة، والقانتين والصادقين والصائمين.... إلخ، وإذا نظرت إلى واقع الناس من حيث التحقيق لهذه المعاني المندرجة تحت هذه الأوصاف تجدهم متفاوتون.

ولهذا كان حظهم من الثواب المترتب على هذه الأوصاف المذكور في تمام الآية بحسب حظهم مما استغرقته هذه الأوصاف من معاني يدل عليه دخول (ال) التعريف على هذه الأوصاف.

ولهذا قال الشيخ **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (بكمالِ هذه الأوصاف يكملُ لصاحبها ما رُتّبَ عليها من المغفرة والأجر العظيم، وبِنُقْصَانِهَا يَنْقُصُ، وَبِعَدَمِهَا يُفْقَدُ)؛ هذا نفهمه من دخول (ال) التي تُفيد الاستغراق؛ دخولها على المسلمين، وعلى المؤمنين، وعلى القانتين، وعلى الصادقين مشعرةً أن هذه الأوصاف مستغرقة لجميع المعاني التي تحتلها هذه الألفاظ.

ولهذا تحتاج عندما تقرأ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾، أن تقرأ أحاديث كثيرة تعرفك بالإسلام، وبمباني الإسلام، وبأوصاف أهل الإسلام؛ مثل حديث: «بني الإسلام على خمس»، مثل حديث: «من حديث حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، مثل حديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، هل المسلمون في الإسلام على رتبة واحدة؟ لا.

فإذا قوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ أهل الإسلام متفاوتون في الإسلام، وأهل الإيمان متفاوتون في الإيمان، أهل القنوت متفاوتون في القنوت، أهل الصبر متفاوتون في الصبر، وحظهم من الأجر الذي خُتمت به هذه الآية الكريمة بحسب حظهم من الأوصاف التي استغرقتها هذه الأسماء؛ هذا مثال على أسماء الأوصاف.

مثال آخر على أسماء الأجناس: الإنسان، قال: (وكذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾)؛ الإنسان هذا اسم جنس يتناول كل بني الإنسان، قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾، فإذا عرفنا القاعدة: وهي أن (ال) إذا دخلت على أسماء الأجناس أفادت الاستغراق؛ فمعنى ذلك أن كل إنسان هذه صفته؛ إذا مسه الخير كان منوعًا، وإذا مسه الشر كان جزوعًا، لا يُستثنى من ذلك إلا من استثناهم الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بقوله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [سورة المعارج، من الآية: ٢٢]؛ والآيات التي بعدها.

وذكر أيضًا مثال آخر وهو قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾؛ أي جنس الإنسان في خسارة، وكل إنسان خاسر؛ لأن (ال) إذا دخلت على اسم الجنس أفادت الاستغراق؛ فإذا قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾؛ أي كل إنسان خاسر، جميع الناس خاسرين إلا من استثناهم الله، وهم المتصفون بأربعة صفات: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾، ومن سواهم كلهم في خسران. يفيدنا ذلك دخول (ال) على اسم الجنس في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.